إشكالية ترجمة الشعر: محمود درويش نموذجا

The issue of poetry translation: Mahmoud Darwish as a model

دندان صبرينة

جامعة وهران ـ الجزائر

sabrinata15@hotmail.com

Résumé : *Mahmoud Darwich est probablement l'un des auteurs les plus difficiles à aborder, peut-être parce qu'il s'agit d'un personnage complexe. Poète politique ? Poète de la résistance ? Poète de l'exile ? A la grande surprise de Darwich, ses poèmes ont été politiquement interprétés par le public français. Cette déception répétée de voir son public faire de son œuvre une lecture politique là où elle ne s'y prêtait pas, nous pousse à poser cette question : Comment donc présenter Darwich ? Et quelle image le lecteur français devrai-il avoir de lui au milieu d'un tas de clichés dont foisonnent les articles de presse ? Et enfin comment aborder la traduction poétique en générale ?*

Mots clés *: Traduction poétique, Mahmoud Darwich, interprétation, réception, culture, arabe / français.*

Abstract: *Mahmoud Darwich is probably one of the most difficult authors to be approached, perhaps because he is a complex character. Political poet? Poet of resistance? Exile poet? Much to Darwich's surprise, his poems were politically interpreted by French audiences. This repeated disappointment to see his public make of his work a political reading where it did not lend itself to it, pushes us to ask this question: How then to present Darwich? And what image should the French reader have of him in the midst of a heap of clichés abounding in press articles? And finally how to approach poetic translation in general?*

Keywords: *Poetic translation, Mahmoud Darwish, interpretation, reception, culture, Arabic / French.*

هنـاك مثل إيطالي شهير يقول: " أيها المترجم، أيها الخائن! "، و إذا كانت الترجمة عموما نوعـا من الخيانة، خاصة في مجال الأدب ، فإن ترجمة الشعر هي الخيانة العظمى، و يبدو أن مـا ذهب إليه بعضهم من أن " الشعر لا يستطيع ترجمته إلا الشاعر" حكم صحيح نظرا لصعوبة ترجمة الشعر و الحفـاظ على موسيقية النص الأصلي للقصيدة ، فالشعر أكثر الفنون عنـادا

Corresponding author : Dindane Sabrina

في محليته- كما يقول إليوث [1] - بمعنى أنه ضارب في تربة لغته و بيئته و تراثه ، و الكلمة فيه تعني لمن رضع لبان هذه اللغة ما لا يمكن أن تعنيه للغريب عنها. ومن هنا يتعين على المترجم أن يكون ذا إلمام لا باللغة فحسب وإنما بالثقافة والحضارة اللتين أنجبتا القصيدة وبالميراث التاريخي الكامن وراءها، وعلى هذا الأساس، يحتاج القارئ الأجنبي إلى كثير من الهوامش والشروح التي قد لا يحتاج إليها ابن اللغة الأصلية.

تركز إذن التعاريف المتعلقة بترجمة الشعر على أن أفضل ترجمة له هي التي تنقل اللفظ المرادف والمعنى والإيقاع، وهو عمل لابد أن يبتلى بشيء من التصرف نظرا للتفاوت في التعبير والتركيب اللغوي وفي الأفكار والاختلافات بين اللغتين الأصلية والمتلقية:

«La traduction poétique est un art de recoder, c'est à dire une activité linguistique destinée à déchiffrer les codes d'un message source et à produire par voie de transfert de sens et de style sa double cible, dont les constituants sont reliés à ces mêmes codes par une relation à la fois interne et externe.»[2]

وهذه الصعوبة في ترجمة الشعر قد تفرز عدة حالات من أهمها ترجمة تتدنى عن الأصل، وأخرى نشهد فيها تفوقا عن الأصل، وفي أحيان كثيرة تحصر القصيدة صاحبها في نطاق قد لا ينتمي إليه بالضرورة عندما لا تعني لقارئها الذي تتوجه إليه بالخطاب ما تعنيه لقارئ النص الأصلي وتضيع عادة أغلب خصائصها الجمالية أو الصوتية، وهذا ما يحدث مع الشاعر محمود درويش. فعندما يساء تأويل القصيدة ويتلقاها القارئ على منحى يختلف بكثير عما كان يهدف إليه الشاعر، يعتبر هذا شكلا من أشكال تعذر الترجمة أو بالأحرى إخفاقها، إذ يصنف محمود درويش دوما على أنه شاعر سياسي، المدافع عن القضية الفلسطينية، شاعر المقاومة والالتزام... وهو ما يستاء منه محمود درويش دائما ويريد أن يثبت عكسه:

[1] توماس ستيرنا إليوث (1888 – 1965): علم كبير من أعلام الشعر الإنجليزي الحديث، وقوة من أهم القوى التي شكلت تفكير عدة أجيال من الشعراء، من أشهر دواوينه: " كتاب بوسام العجوز عن القطط العملية ".

[2] Cf. E. Etkind, *Un art en crise, Essai de poétique de la traduction poétique*, traduit par Wladimir Troubetzkoy avec la collaboration de l'auteur, Lausanne, 1982.

ISSN : 1112 – 3974

«...le poète (…) parle de la réception de ses livres et dit être blessé quand on fait de lui un simple mousquetaire de la cause palestinienne"[3]

ولد محمود درويش سنة **1942** بمنطقة بيروا، وعندما بلغ السادسة من عمره، هاجر مع عائلته إلى لبنان، وبعد أشهر قليلة رجع وبطريقة غير شرعية إلى قريته التي استبدلت بمستعمرة إسرائيلية، وأصبح بالتالي مهاجرا، لكن هذه المرة في بلده حيث تم تجريده من كامل حقوقه، فلجأ إلى الكتابة وأراد أن يتمسك ويثبت هويته في الشيء الوحيد الذي يملكه وهو: لغته. ليتنقل بعدها بين الدول العربية والغربية، من موسكو إلى القاهرة مرورا بتونس ونيويورك ثم لبنان حيث قضى وقتا طويلا قبل أن يتوجه إلى باريس التي عاش فيها كثيرا، وهو اليوم يتنقل بين رام الله والأردن.

و يعد محمود درويش صاحب ثاني أكبر قدر من الأعمال المترجمة إلى الفرنسية برصيد يبلغ **13** ديوانا بعد أدونيس الذي ترجم له **17** عملا إلى جانب ترجمات أخرى غير شعرية [4]. وهذا ما جعله يتحصل على لقب خاص عند الغرب:

< **le plus grand poète arabe des temps modernes** > [5]

وبالرغم من هذه المكانة المرموقة التي يحظى بها في فرنسا إلا أن محمود درويش عانى من عدة عراقيل حالت دون تحقيق شهرة أوسع ، إذ لغاية سنة 2000 ، كان اسم محمود درويش لا يعني شيئا بالنسبة لعدد من المثقفين الفرنسيين، في حين يقر البعض الآخر بأنهم " سبق لهم و أن سمعوا عن هذا الشاعر العربي " ، ومجموعة أخرى أقل من سابقتيها أكدت معرفتها " بهذا الشاعر الفلسطيني" ، إلا أنه اليوم، شرع في اقتحام الساحة الثقافية في فرنسا

A. Clavel, " le Neruda du Levant : Porte drapeau de la littérature palestinienne ", Littérature, 26 - 27 août 1997, p 36.

[4] **قاعدة بيانات مكتبة معهد العالم العربي في باريس** la base de données de l'Institut du Monde Arabe, jusqu'au début de 2004)

[5] Titre donné aussi à Nizar Qabbani.

ISSN : 1112 – 3974

بشكل واسع، و قد يرجع هذا إلى الاهتمام الخاص بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وصحوة الضمير الفرنسي بالظلم الذي يعانيه الشعب الفلسطيني.

ومع هذا فالعراقيل الكثيرة والمتعددة التي تحول دون قراءة جيدة لهذا الشاعر في فرنسا، جعلت تلقيه يتم بعكس الصورة التي يرغب هو أن يظهر بها، وترسخ في أذهان الناس، لأنه ليس فقط عربي- وهي إشكالية في حد ذاتها، حيث يطرح المصطلح لوحده عقبة أمام استقبال الأدب العربي بصفة عامة - لكنه قبل كل شيء فلسطيني، ولذلك يتطلع القارئ دوما، وهو أمر طبيعي، إلى شعر مقاومة، فيه تنديد بالعدو الإسرائيلي بما يمارسه من بطش وتقتيل. ومما ساهم في ترسيخ هذه الفكرة أيضا، تعامل الصحافة مع هذا الشاعر وتقديمه، وبشكل مستمر، على أنه شاعر القضية، في حين أنه قدم أشياء كثيرة أخرى مختلفة حيث يقول:

« Je voudrais être présenté au public Israélien comme un poète de l'amour. Je veux que le publique, tous le publique, connaisse le poète qui est en moi pas seulement le palestinien qui est en moi »[6]

لا نجد في أشعار محمود درويش أي نوع من الغيظ أو العنف أو أي إشارة إلى مجازر دير ياسين، صبرا وشتيلا وقانا، أو حتى جنين، ولا إشارة أيضا إلى الغزو الإسرائيلي لبيروت أو التجاوزات التي حدثت في رام الله وبيت لحم، بل نجد حنين، اشتياق، شوق وصور ناعمة: البحر، الرمل، الزيتون، رائحة القهوة، وخبز الأم ...إلخ.

فكيف ينبغي علينا إذن تقديم محمود درويش؟ وأي صورة له ينبغي أن تكون لدى القارئ الفرنسي وسط هذا الزخم من الكليشيهات **التي** تتناقلها مقالات الصحف والجرائد؟ هل هو شاعر سياسي؟ محمود درويش يشرح كيف اتجه عدد كبير من القراء والنقاد إلى شحن أشعاره بأبعاد سياسية غير موجودة أصلا، فهل هو خطأ من المترجم أم تقصير من القارئ بسبب آفاقه الضيقة أم توجيه مفتعل ومدروس من الناقد لأسباب خفية؟

[6] Mona Challer, " Inscris 1 Je suis poète " www.inventaire-invention.com , 2000.

ISSN : 1112 – 3974

وكمثال لما نقول نأخذ قصيدة " إلى أمي " التي انتشرت بسرعة وجلبت لصاحبها شهرة واسعة خصوصا بعد أن لحنت وغناها اللبناني مارسيل خليفة. كتب هذه القصيدة سنة **1956** عندما زج في سجون العدو لأول مرة بعد العدوان الثلاثي على مصر و احتلال غزة ، إذ قامت والدته حينها ، و التي كانت علاقتهما جد متوترة آنذاك ، بزيارته في السجن ، حاملة معها القهوة و بعض الفواكه، عندئذ أدرك مدى الحب الذي تحمله له والدته، و حينها كتب قصيدته الشهيرة " إلى أمي" [7] حيث عبر لها فيها عن حنينه و اشتياقه إليها، و قد كانت دهشة محمود درويش كبيرة عند ترجمة القصيدة إلى اللغة الفرنسية و تأويلها من قبل المتلقي الأجنبي، حيث أصبحت : " خذيني ، إذا عدت يوما .. وشاحا لهديك ... وغطي عظامي بعشب.. تعمد من طهر كعبك ... وشذي وثاقي... بخصلة شعر ... بخيط يلوح في ذيل ثوبك ... عساني أصير إلها... إلها أصير ..."

وكل تلك الأبيات التي حاول من خلالها الشاعر أن يرسم نفسه ضمن إطار الحياة اليومية البسيطة لأمه أن يكون جزءا أو غرضا صغيرا تتناوله يدها، أن يكون شيئا ضئيلا حقيرا إلا أن لمستها تحوله إلى قدسا مباركا، أصبحت تعني بالنسبة لكل من قرأ الترجمة أمرا مغايرا، حملتها أبعادا سياسية وحولت الأم إلى الوطن، هذا من حيث تلقي القصيدة ككل:

« ...Les gens ont interprété ce poème d'aveu, ce poème par lequel je voulais expirer mon sentiment de culpabilité à l'égard de celle que j'avais soupçonné de me haïr, comme un chant de nostalgie nationaliste. Je ne m'attendais pas à ce que des millions de gens le chantent – après qu'il eut été mis en musique par Marcel Khalifé – en croyant que la mère dont parle ce poème est la patrie. C'était une lettre de réconciliation d'un enfant à sa mère »[8] .

أما لو نحاول التعرض لعباراتها بدقة فسنجد أن الترجمة -بالرغم من صدقها وحكمة اختيار المقابلات- إلا أنها، برأيي، أقل دلالة وقوة من الأصل، ففي البيت الأول مثلا:

أحن إلى خبز أمي

[7] و التي نشرت سنة 1966.

[8] H. Yeshrun, " Mahmoud Darwich. ' Je ne reviens pas, je viens '.

ISSN : 1112 – 3974

ترجمت بـ:

J'ai la nostalgie du pain de ma mère

أعتقد أن مقابل " أحن " في هذا السياق لا يحمل نفس المعنى والشحنة الدلالية الموجودة في الأصل، (**avoir de la nostalgie**)، قد تؤدي المعنى لو كان الحنين إلى الوطن أو الماضي أو مكان أو لحظة ما، لكن في سياق قصيدته، أرى أن عبارة

(Je langui pour) أقرب بكثير من « أحن ».

ولو نواصل مع أبيات القصيدة نفسها نجد:

وأعشق عمري لأني

إذا مت،

أنجل من دمع أمي!

ترجمت بـ:

Et *je chérie ma vie*, car
Si je mourais, j'aurais *honte* des larmes de ma mère !

رغبة منه في إبعاد أمه عن أي نوع من الألم أو الأسى، يقول الشاعر أنه صار يحب حياته ويود أن يطول عمره حتى يجنب أمته سكب أية دمعة عند موته، في حين لا تحمل الترجمة الصورة نفسها بدلالتها القوية، إذ " العشق " هنا لا يعني **(Chérir)** كما أنه لا يقصد بـ " انجل "المعنى الذي تؤديه **(la honte)** بالفرنسية الذي قد يكون مقصده سلبي عكس ما هو في الأصل.

وفي بيت آخر نقرأ:

وغطي عظمي بعشب
تعمد **من طهر** كعبك

ترجمت بـ:

Recouvre mes os de cette herbe
Baptisé *sous* tes talons *innocents*

ISSN : 1112 – 3974

نجد أن " الطهارة " تختلف عن " البراءة " وقد تكون " البراءة " جزء منها، هذا من ناحية المقابل. أما من ناحية السياق فنجد أن طهر الكعب وعفته هي الوسيلة المستعملة وهذا لا نجده في الترجمة.

ولو نرجع للقصيدة ككل، فسنجد أن الأصل يحمل صورا معبرة لها علاقة بثقافة عربية عريقة وعادات وتقاليد العلاقة القائمة بين أم وابنها في مجتمع عربي يقدس هذه العلاقة، لذا نرى أن ترجمتها الحرفية أفقدتها الشحنة الدلالية التي يمتاز بها الأصل من جهة السياق والمعنى، كما أفقدتها النغمية والنهايات الإيقاعية الرنانة، فتحول الشعر إلى نثر من جهة الشكل والقافية.

ومع أن محمود درويش يسعى دوما من خلال لقاءاته وحواراته التأكيد على الاختلاف بين الخاص والعام، تاريخ الشاعر وتاريخ بلاده، الرغبة في العيش والاستمتاع والصراع السياسي المرير، إلا أنه سخر مجموعة كبيرة من أشعاره في خدمة قضية وطنه، وحتى هذه الأشعار، ومع أنها واضحة ومباشرة ارتكب بعض المترجمين أخطاء، مما قد تسبب في إحداث نوع من التشويش عند المتلقي.

فلو نأخذ مثلا قصيدة " بطاقة هوية " والتي ترجمت إلى الفرنسية بـ **(Je suis Arabe)** فسنجد فيها بعض الإخفاقات في إيجاد المقابلات، وكذا بعض الإضافات التي لا ضرورة إليها، وقبل الخوض في التفاصيل، نرجع إلى العنوان حيث فضل المترجم عبارة **(Je suis Arabe)** وهي كلمة تكررت كثيرا في النص الأصلي، كي تكون عنوانا للقصيدة في نسختها الفرنسية بدلا من " بطاقة هوية "، مع أن العبارة في الأصل كانت دوما مسبوقة ب كلمة " سجل! ".

وقد يكون لهذا الاختيار هدفا سياسيا بحتا، إما وضعه المترجم نفسه أو إرضاء لرغبة الناشر لاستقطاب شريحة كبيرة من القراء، خصوصا وأن عبارة **(Je suis Arabe)** عند المجتمع الغربي لاسيما الفرنسي تعني أشياء كثيرة، للأسف معظمها سلبية، في حين لو نقرأ القصيدة لا نجد فيها كل تلك الدلالات التي تحملها العبارة المترجمة والإيحاءات التي ترمي إليها:

سجل!

أنا عربي

ISSN : 1112 – 3974

وأعمل مع رفاق الكدح في محجر
وأطفالي ثمانية
أسل لهم رغيف الخبز
والأثواب والدفتر
من الصخر
ولا أتوسل الصدقات من بابك
ولا أصغر
أمام بلاط أعتابك
فهل تغضب؟
سجل!
أنا عربي

وعند تطرقنا للقصيدة لاحظنا إضافات لا وجود لها في الأصل، مثل:

La nourriture que je préfère c'est l'huile d'olive et le thym

كذلك جملة أخرى في المقطع التالي:

أنا من قرية عزلاء **... منسية** ← حذفت
شوارعها بلا أسماء
وكل رجالها... في الحقل والمحجر

الترجمة:

Je suis d'un village isolé.
Où les rues n'ont plus de noms
Et tous les hommes ... à la carrière comme au champ
Aiment bien le communisme

نلاحظ في هذا المقطع إضافة جملة بأكملها ومن خلالها يجعل المترجم من الشاعر يأخذ مواقف واتجاهات سياسية، قد يؤمن بها، لكن لم يقلها صراحة ولم يتعرض إليها في الأصل

ISSN : 1112 – 3974

همه الوحيد في هذه القصيدة هو التأكيد للآخر على صمود الشعب الفلسطيني وقيمة الكرامة والعزة والكبرياء بالنسبة له وتفضيلها على كل مغريات الحياة.

مثال آخر دليل على تعذر نقل الصيغة ذات دلالة عربية بحتة، وكذا حذف لجملة بأكملها قد لم يفهمها المترجم أو استحال عليه أمر ترجمتها:

أبي من أسرة المحراث
لا من سادة نجب
وجدي كان فلاحا
بلا حسب ... ولا نسب!
يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب

ترجمت بـ:

Mon père ... est d'une famille de laboureurs
N'a rien avec messieurs les notables
Mon grand-père était paysan – être
Sans valeur – ni ascendance

نلاحظ جليا عبارة " بلا حسب.. ولا نسب " والتي يقصد بها بلا جاه ولا مال ولا قوة أو سلطة أو حتى مكانة اجتماعية مرموقة، لكن المفهوم من (**ni - sans valeur ascendance**) لا علاقة له بالأصل، وكأن المترجم اكتفى بإيجاد المقابل اللغوي دون مراعاة المقابل الثقافي أو الحضاري، كما فضل عدم ترجمة عبارة " يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب "، والتي تعني مدى أهمية تربية الأطفال منذ الصغر على الأخلاق والقيم، وتحصينهم بعزة النفس والكبرياء والشموخ (كشموخ الشمس) قبل حتى التأكيد على الجانب العلمي.

وبالتالي فقد لم يفهم المترجم العبارة أو تعذر عليه إيجاد المقابل، هذا من ناحية السياق والمعنى، أما من ناحية الشكل وموسيقية القصيدة، فمثلها مثل " إلى أمي «تحول الشعر إلى نثر، لا وجود لأي قافية أو الإيقاع النغمي المعهود في الأشعار.

من خلال كل هذه الأمثلة، يمكن القول إن المترجم يضطر أحيانا إلى إسقاط جملة أو تحويرها أو تغيير صورة لأنها لن تعني لقارئها الذي يتوجه إليه الخطاب ما تعنيه لقارئ

ISSN : 1112 – 3974

النص الأصلي وتضيع عادة أغلب الخصائص الصوتية، فالترجمة النثرية تمتاز بالأمانة وتؤدي المعنى بدقة، ولكن الشعر حين يفقد موسيقاه، أي حين يتحول إلى نثر، لا يعد شعرا، وبهذا يفقد جوهره المميز، بل يفقد علة وجوده ذاتها. والترجمة الشعرية في سعيها إلى مقاربة البنية الموسيقية للأصل لابد أن تضطر إلى الابتعاد عن النص قليلا أو كثيرا، ومن ثم تفقد الأمانة وهي ضرورية في هذا المجال كما في غيره. خلاصة القول إذن أن أهم القيم الجمالية التي تتساقط عبر مشروع الترجمة: قيم فكرية تتعلق بالمعنى، وقيم لفظية تتعلق بالكلمة شكلا وصورة.

واعتقادي أن السبيل الأمثل لترجمة الشعر، أو أقل السبل ضررا، هو ما عمدت إليه الشاعرة والناقدة والمحررة الفلسطينية سلمى خضراء الجيوسي حيث أصدرت مختارات من الشعر العربي مترجما إلى الإنجليزية، فقد كانت تكلف أحد المترجمين من أبناء العربية بنقل القصيدة إلى الإنجليزية نقلا حرفيا، ثم تعهد بها إلى شاعر بريطاني أو أمريكي يتولى إعادة صياغتها في نطاق المحافظة على المعاني والمضمون.

وأعتقد أن هذا أسلم سبيل ممكن في مواجهة هذه المعضلة الصعبة: معضلة الاحتفاظ بالخصائص الشكلية للشعر، من حيث هو تشكيل لغوي تؤدي الكلمة عادة دورا أكبر من دورها في فن القصة أو المسرح أو المقالة، مع التزام الأمانة في نقله.

References

[1] Clavel, A. (1997). Le Neruda du Levant : Porte-drapeau de la littérature palestinienne ; *Littérature, 26,* p36.

[2] Etkind, E. (1982). *Un art en crise, Essai poétique de la traduction poétique, traduction française*, Lausanne, L'Age d'Homme.

[3] Yeshurun, H. (1996). Mahmoud Darwich : « Je ne reviens pas, je viens ", traduction française à partir de l'Hébreu, *Revues d'Etude Palestiniennes, automne 1996, nouvelle série n°9* (Cet entretien a eu lieu le 7 février 1996 à Amman et a été publié dans la revue israélienne Hadarim, printemps 1996, n°12) www.inventaire-invention.com

[4] Majallat "al-Thaqāfah, (‘adad Dīsimbir). 1981.

[5] Qā‘idat bayānāt Ma‘had al-‘ālam al-‘Arabī fī Bārīs.

ISSN : 1112 – 3974